Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وليس هذا رثاءً إنما هو تمجيد لا يدانيه تمجيد فى رثاء الأبطال الذين يَفْدون شعوبهم بمهجهم وأرواحهم، فيكتبون لها بذلك نصرا مؤزرًا. فابن حميد لم يهزم ولم يفرّ جبنا من حرب بابك، بل أقدم إقدامًا لا يشبهه إقدام، وفتك بالأعداء فتكًا لا يشبهه فتك، حتى تقصفت السيوف والرماح فى يده، وهو ثابت فى مستنقع من الدماء حتى الموت الزُّؤام. وابن حميد بذلك مثال للشجاعة التى ليس بعدها شجاعة والبطولة التى ليس بعدها بطولة، بطولة تحلّ محل النصر الذى فاته، وحتى لتتمنى كل روضة مزهرة لو أنها ضَمَّت فى حَشاها جثمانه الطاهر. وحقًّا ما قاله أبو دُلَف لأبى تمام: «لم يمت من رُثى بمثل هذا الشعر» وأى رثاءٍ! لقد أحال استشهادَ ابن حميد فى المعركة الخاسرة نصرًا باهرًا، حتى يأتسى به الشباب العربى المعاصر له فى بذله لروحه وتضحيته بنفسه فى سبيل قومه. وكان جزاءً وفاقًا لأبى تمام أن بَنَى بنو حميد أبناء الشهيد وأهله قُبَّة بعد وفاته على قبره، أداء لبعض حقه.

ويصبح أبو تمام منذ هذا التاريخ لسانًا للعروبة التى كانت تتفجر ينابيعها فى قلبه، لسانا يعبّر عن انتصاراتها الحربية ويصوغها لها أناشيد مجلجلة، أناشيد كالرعد القاصف تنذر الأعداء بالويل والثبور والهلاك والدمار. وكان نافذ البصيرة فرأى ألّا ينظمها بعيدًا عن ساحات الحرب، وإذا هو يصنع صنيع مكاتبى الصحف الحربيين لعصرنا، فيرافق الجيوش حتى يرى الوقائع تحت بصره، ويرى ما يأخذ به قوادها وجنودها البواسل أنفسهم من الصبر والجلد واحتمال ما يطاق وما لا يطاق حتى يذيقوا الأعداء بأسهم ويمزقوهم شرّ ممزق. ويأخذ فى النظم نظم المشاهد المعاين مبتهجًا بالنصر المبين. وأولى معارك هذا النصر التى شهدها وسجلها أناشيدَ لأُمته العربية المنتصرة معاركُ المأمون مع تيوفيل إمبراطور الروم وما أخذ ينزله به منذ سنة ٢١٥ للهجرة من هزائم ساحقة كالَ له فيها هو وجنوده ضربات قاصمة. وكان أكبرها وأشدّها هَوْلًا معارك سنة ٢١٨، إذ لم يكد المأمون يبلغ نهر البُدَنْدون فى الجنوب الغربى لآسيا الصغرى حتى وفد عليه رسول من تيوفيل، جاءه مسرعًا يعرض عليه فى ذلّة